ما كان باكثير الرائد في الشعر الحديث
إنما هو جميل صدقي الزهاوي

د. يوسف عز الدين
بريطانيا

قرأت مقالا في العدد (٣١) من مجلة الأدب الإسلامية للكاتب عبد الله الطنطاوي بعنوان: لماذا يتجاهل الدكتور يوسف عز الدين ريادة باكثير للشعر الحديث؟، ويبدو لي أن الكاتب قليل الاطلاع على ما يكتب من بحوث وكتب. فقد كتبت مقالا في جريدة «لواء الاستقلال» في ١٩٥٤/٥/٢٤م ثم درست الفترة الزمنية للأدب العربي في العراق ما بين سنة ١٩١١م - ١٩٤٥م، لمعرفة بواكير التيار الحديث، وقمت بإحصاء في الجرائد والمجلات كـ«الحرية» و«العراق» و«صدى بابل» و«الزنبقة» و«اليقين» و«الصحيفة» و«الاستقلال» و«البلاد» وغيرها من الجرائد فظهر لي أن أوائل من كتب الشعر الجديد هم «شكري الفضلي» وسماه الشعر المرسل و«مراد ميخائيل» و«خضر صالح» و«بسيم الذويب» و«أنور شاؤول» و«عبد اللطيف السامرائي» وليس «بدراً» ولا «نازك» وكان خير هذه القصائد قصيدة «طارق عبد الحافظ نور الدين» فهي أقرب إلى الشعر الحر - المنشورة في جريدة بغداد سنة ١٩٣٧م:(١)

- سحر الجمال
- كاعب في وجنيتها
- فجر أحلام
- ينام
- رب تقبيل
- يزيد في احمرار
- دمعة في مقلتيها
- لهب آمال يضام
- بجمال لا يسير
- في أواره

وقد نشرت في الجريدة نفسها قصيدة أخرى على هذا النمط.

وكانت الحركة الجديدة متأثرة بوصول أمين الريحاني الذي قلد الشاعر الأمريكي «ولت ويتمان» Walt Whitman ، وقد طبع للشاعر ديوان «Leaves of Grass» «أوراق العشب» عدة طبعات درسه «كاي ولسن ألن» Gay Wilson Alla.

إن زيارة أمين الريحاني الأولى وما صاحبته من دعاية ونشر من شعر الريحاني، الذي لم يكن فيه وزن ولا قافية، أثار الشعراء الكبار، وقد أطلق على هذا الجديد الشعر الحر، وسمي بالشعر المرسل، كما سمي الشعر المنثور. وقد سخر منه الرصافي في قصيدة لطيفة، كما هاجم الرصافي جميل صدقي الزهاوي الذي دعا إلى هذا التجديد. وتبنى هذا التيار رفائيل بطي في مجلته «الحرية» ونكرت هذا بصورة مفصلة في كتابي «في الأدب العربي الحديث، بحوث ومقالات نقدية»(٢).

وخرجت من هذه الدراسة بأن جميل صدقي الزهاوي هو أول من نظم الشعر الجديد اعتمادا على ما نشره في ديوانه المطبوع في مصر سنة ١٩٢٤م، وعلى ديوان «الكلم المنظوم» المنشور سنة ١٣٢٣ الهجرية أي حوالي القرن. والزهاوي من شعراء العراق المشهورين وله صلة وثقى بمصر وأدبائها لاسيما المقتطف والرسالة، وقد أثارت آراؤه ضجة لأنه نظم قصيدة يؤكد رأيه بوجوب التخلص من القافية والإبقاء على

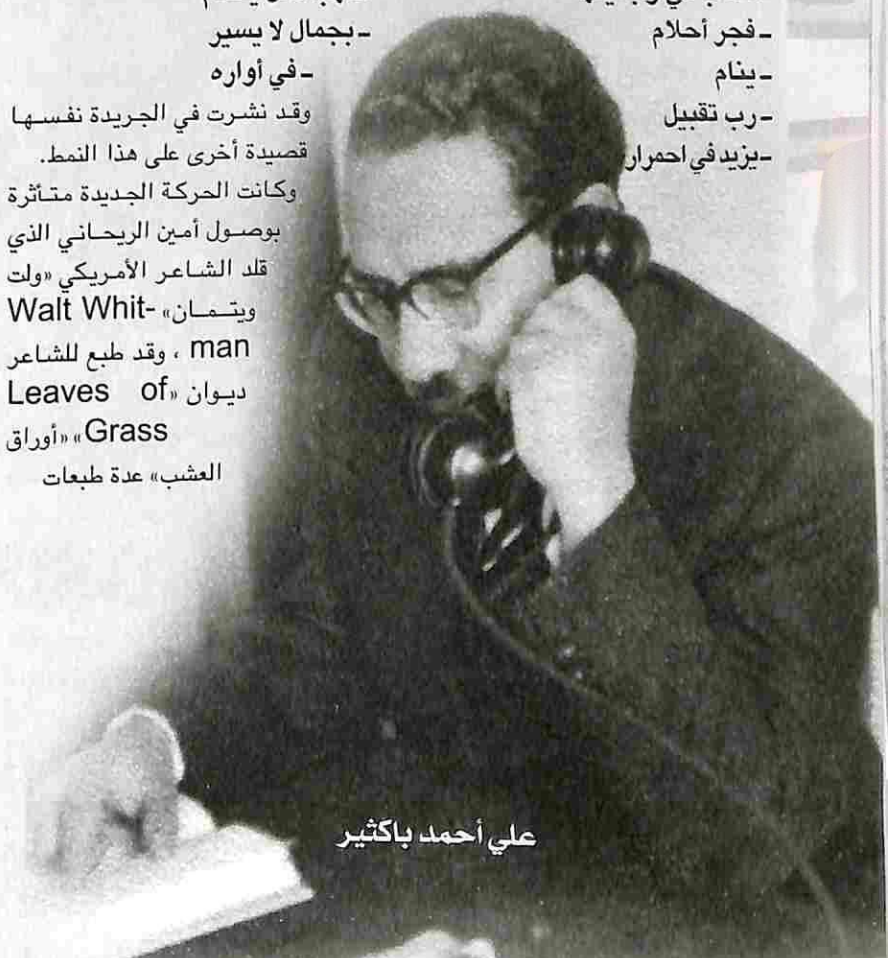

علي أحمد باكثير

الوزن(٣).

ولم يكن الأستاذ باكثير موجودا في مصر فقد وصلها سنة ١٩٣٤، ومثل آراء الزهاوي وضجته لابد أن سمعها باكثير لاسيما أنه سمى هذا الضرب بالشعر المرسل.

بلغت قصيدة الزهاوي ستين بيتا، ونشرت في ديوانه، وفي «الكلم المنظوم»، ومن هذه القصيدة:

لموت الفتى خير له من معيشة
يكون بها عبئا ثقيلا على الناس
يعيش رخي البال عشر من الورى
وتسعة أعشار الأنام مناكيد

إن عناية رفائيل بطي بالشعر الجديد وأمين الريحاني والزهاوي هي التي دعت بدر شاكر السياب إلى أن يطلب من بطي أن يضع مقدمة لديوانه «أزهار ذابلة» الذي طلع في مدينة القاهرة سنة ١٩٤٧م.

كتبت أكثر من مرة، ونشر لي في مدينة جدة «التجديد في الشعر الحديث» ذكرت فيه بأن الزهاوي هو الرائد، ولم يسبقه أحد في الفكرة(٤).

هل أنا من كتاب مجلة الآداب؟

المؤمن إذا حدث صدق ويأتي بالبرهان، وقد قال كاتب المقال: إنني من كتاب المجلة، وهي مجلة مشهورة حملت لواء فكرة لم أكن أتفق معها، فأرجو الكاتب أن يذكر لي المقالات التي كتبتها، والبينة على من ادعى. فأنا لم أكتب في مجلات لبنان غير تعليقين لا ثالث لهما، وإنما كنت أكتب في مطبوعات دمشق وحلب، ولماذا ينسى سوريا ويقرأ صحف لبنان؟ للكاتب هدية من كتبي التي جاوزت الخمسين إذا ذكر أسماء المقالات التي كتبتها في «الآداب».

هل قولي غامض؟:

ومن الطريف أن الكاتب قال بأنه لم يفهم ما أكتب. واستغربت قول هذا من عربي. فقد فهمته الدكتورة «أوديت بتي» من جامعة السوربون، وفهمته أختها «فاندا فوستا» من جامعة نيس، وفهمته «ماريا كافيرا» من أسبانيا، وفهمه البروفسور «بوزورت» من إنكلترا، كما فهم الروس، وكتب «أنجي دريفنوفسكي» رسالة ماجستير بالبولونية عن أدبي وترجم إلى اليوغسلافية.

والخلاصة، كتب عني ستة عشر كتابا.

فكيف فهمه الأجانب واستعصى فهمه على العربي؟

كتب عني أكثر من أربعين شاعرا، وأخرج بذلك الأستاذ حماد السالمي كتابا سماه «أشعار المحبين إلى يوسف عز الدين». وأخيرا كتب عني أكثر من ثلاثين من الأساتذة الكبار والنقاد في الجامعات في عدد خاص «يوسف عز الدين في مرايا الآخرين» من مجلة «ضفاف» صدر في النمسا وصاحبها(٥) رجل مرموق وكاتب ثبت، وهو الذي كتب عني كتابه يوسف عز الدين: شعره وتجديده، فهل كل هؤلاء لا يفهمون؟ وأخيرا لابد من عتاب لأخي الشاعر الرقيق ذي الذوق الرفيع الدكتور عبد القدوس لأنه سمح بكلامي الغامض وعباراتي المعماة ونشرها فلم يصلحها.

وليطمئن الكاتب، فإنني ذكرت علي أحمد باكثير في كتابي «التجديد في الشعر الحديث: بواعثه النفسية وجذوره الفكرية «في أربعة مواضع: عندما تحدثت عن عبد الرحمن شكري والمازني وقلت بأنهما تأثرا قبله بالشعر الإنجليزي، وقلت أيضا عنه بأنه كتب الشعر الجديد عندما نظم مسرحياته وتحدى أستاذه الإنكليزي، وقلت عنه في كتابي «قديم لا يموت وجديد لا يعيش».. وكان الشاعر باكثير – رحمه الله – من الشعراء الذين وقفوا فكرهم على العروبة والإسلام بما ألف من مسرحيات وما كتب من شعر، وهو من رواد التجديد في الوزن والقافية، فأرجو مراجعة كتبي.

الملاحظة الواضحة أن الكاتب قال: إنه أسكت جميع المعارضين، لذلك «فإن أيا منهم لم يستطع دحض ما توصلت إليه في دراستي من أن رائد الشعر الحديث هو الشاعر علي أحمد باكثير» ولم يذكر لنا برهانه حتى يغير الباحثون الآراء.

والمهم أن الكاتب لم يبرهن على أي شيء، وإنما انصب المقال على مدح نفسه، ولم يذكر لنا برهانه الذي أخرس فيه كل الأدباء والنقاد في العالم العربي، النقاد الذين ناقشهم فأفحمهم حسب قوله في عدد المجلة سنة ١٩٦٩م.

قال الكاتب عني «وكأنه كان ينظر إليه – ويقصد مقاله – وهو يعدد الأسماء التي كنت ناقشتها في مقالي، أعني الشعراء والكتاب نازك، السياب، أبو حديد، باكثير، أبو شادي، د. كمال نشأت(٦) الزهاوي، غالي شكري، صلاح عبد الصبور، لويس عوض، ناجي علوش، إنعام الجندي، النويهي، سيد قطب، مختار الوكيل، د. عبد الهادي محبوبة، عبد الرحمن شكري، خليل شيبوب، دون

أن يراعي الذوق العربي في وضع حرف العطف بين الأسماء.

ها هم صرعى مقالته لأنه قال.. و«لكن أيا منهم لم يستطع دحض ما توصلت إليه في دراستي عن رائد شعر التفعيلة الذي سبق نازك والسياب بضع عشرة سنة» وقال و«ما أحسب الدكتور لم يقرأ هذه الردود الكثيرة عليه فقد استمرت أكثر من سنة».

إن ذكر الأسماء ضرورة للباحث للاستشهاد، فإذا كتبت عن الشعر الجاهلي فهل أهمل أسماء الشعراء لأن الزوزني قد ذكرهم؟ وهل إذا كتب أحد عن الشعراء العباسيين يجب التوقف عن ذكر أسمائهم لأن باحثا ذكرهم قبله؟!

ولا أريد أن أناقش هذه المقولة الساذجة، ولكن أقول: إن الكاتب لا يعرف بأن نازك وبدراً وعبد الهادي محبوبة زملائي في جمعية المؤلفين والكتاب، وكان معي في الهيئة الإدارية عدة مرات الدكتور محبوبة ونازك إضافة إلى أنهما من زملاء جامعة بغداد، وأنا أدرس الشعر العربي الحديث وبرزت أدب نازك وبدر، وأن الدكتور كمال نشأت زميلي في الجامعة وفي التدريس في بغداد وصديقي. ولو كان للكاتب أهمية لذكره في كتابه في «نقد الشعر»، فقد تحدث عن نازك وعن بدر وعن الريادة في فن الشعر، وذكر خلافه مع الدكتور سعد مصوع في كتابه «أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث»، ورجح أن الرائد هو أحمد فارس الشدياق، وسمى شعره «الشعر المرسل». وكان ناجي علوش من أصدقائي، وكانت لي علاقة مع صلاح عبد الصبور، ودعاني إلى داره عندما كنت أحاضر في معهد الدراسات والبحوث العربية، وطبع لي المعهد ستة من كتب المحاضرات.

والطريف أن الكاتب حشر اسم عبد الرحمن شكري فيمن ناقش، وعبد الرحمن أصيب بالفالج سنة ١٩٥٢م وبالسكر، وتوفي سنة ١٩٥٨م، فهل أخرسه حيا أم ميتا؟ ولا أدري أين ناقش الزهاوي هل في بغداد أم في مصر؟ لأن الزهاوي كان قد توفي في ١٣ شباط ١٩٣٦م!!. وقد برهنت على أنه رائد الشعر الحديث في كتابي «في الأدب العربي الحديث»، ووضعت مقدمة لكتاب الباحث العراقي الثبت عبد الحميد الرشودي «دراسات ونصوص عن جميل صدقي الزهاوي» نشرت في كتابي «قضايا من الفكر الحديث» المطبوع في القاهرة.

لا أدري كيف يحتفظ طالب علم بمقالة ليست معروفة الأصالة وبلا برهان مدة ثلاثين سنة، وقد ظهرت كتب وبحوث واختلفت حكومات وآراء، وضاعت دول، مع أن كاتب المقال غير مشهور، ولم نعرف أي كاتب رد عليه في مؤلفاته. ويبدو أن حب الذات جسم له بأني أحتفظ بهذا المقال «يتيم الدهر» أنّي سافرت وأنا كثير الترحال والتنقل ما بين الصين وإنكلترا وألمانيا وأوروبا كلها، وعندي سفرات منظمة لحضور المجمع، مع أني - يشهد الله - لا أملك كل كتبي. ولو فرضنا جدلا أنني أحتفظ بهذا المقال يتيم الدهر فقد بعدت عن مكتبتي منذ سنة ١٩٧٩م في غربة مستمرة ما بين الإمارات عميدا، والرياض والطائف وليبيا والأردن وإنكلترا أستاذا وزائرا.

والخلاصة:

١- قال الباحث بأنني من كتاب مجلة الآداب ولم أدع هذا الشرف ولعلي نسيت. فهل يتفضل بذكر أسماء مقالاتي التي كتبتها في المجلة؟ وله الأجر عند الله، والجائزة السريعة مني!.

٢- قال: إن باكثير رائد شعر التفعيلة، ولم يكن الرجل من فرسانها لأن الزهاوي نشر شعره قبل وصول باكثير بسنوات في «ديوان الزهاوي» سنة ١٩٢٤م، وديوانه «الكلم المنظوم» سنة ١٣٢٣ هجرية، ولم يصل باكثير إلى مصر إلا سنة ١٩٣٤م.

٣- قال الكاتب بأني قرأت مقاله الصادر سنة ١٩٦٩م، وفاته بأنني أخرجت كتابي «في الأدب العربي الحديث» سنة ١٩٦٧م، وطبع ثلاث طبعات في بغداد والقاهرة والرياض كما وزع في بيروت.

وقد وجدت الكاتب يمدح نفسه كثيرا دون أن يوثق قوله عندما صرع الكتاب والعلماء وأساتذة الجامعات بمقاله قبل ثلاثين سنة وهو بلا دليل. ولكن الكاتب أساء إلى الناس، وقد قال الرسول - صلى الله عليه وسلم: «إن أقربكم مني يوم القيامة أحسنكم أخلاقا»، وهو تباهى بالخطأ واستمر يماري بالغلط، وبقي عليه ثلاثين سنة - حسب قوله - لأنه لم يقرأ ما كتب غيره، وعاش على مقاله يتيم الدهر!.

وأخيرا يظهر بأن الكاتب «عبد الله الطنطاوي/سوريا» لم يطلع على ما حدث في عالم الأدب، وليست له صلة كبيرة بالأدباء، فما تعرفت عليه في اجتماعات الأدباء التي عقدت في بغداد والقاهرة والصين والاتحاد السوفيتي وفي بيروت، وقفز أكثر من ثلاثين سنة يدعي بأنه أخرس الأدباء، وحسب بأنني قرأت مقاله الذي نشره، وأشكره على حسن الظن بقوة ذاكرتي، وبأنني أتذكر مقالا كتب قبل هذه الفترة، مع أنني نسيت -يشهد الله - المقال الذي رد فيه علي، وطلبته من الدكتور عبد القدوس بالناسوخ.

الهوامش:

(١) في الأدب العربي الحديث، ص ٢٢٠، ط٣.

(٢) لاحظ ص ٢١٣ - ٢٥٨ بصدد الأمثلة الكثيرة.

(٣) لاحظ مجلة الزهاوي: الإصابة سنة ١٩٢٦م.

(٤) لاحظ كتابي: الزهاوي الشاعر القلق. المطبوع في بغداد.

(٥) وديع العبيدي.

(٦) سألت د. كمال نشأت، فقال: إنه لا يعرف هذا الكاتب مطلقاً.

سينشر رد الأستاذ عبد الله الطنطاوي في العدد القادم إن شاء الله